مالك بن نبي.. ومنظومة مفاهيم القابلية للاستعمار

د. علي الطنازفتي*
د. عطية ابوبريق**

تكتسي المفاهيم والاصطلاحات في عالم الأفكار أهمية بالغة إذا هي المكون لثقافة الشعوب وهي داعم للقيم ومساند للاستقرار الاجتماعي والسياسي... وعدم ضبطها كمنشأ ومنطلق فكري بمرجعية مقدسة أو وضعية... تتعلق برؤية كونية تجمع بين عالم الغيب والواقع أو تفصل بينهما؛ تتميز بقبول عام عند غالبية الناس أو تتحيز لفئة دون الباقي؛ وعدم ضبط هذه المفاهيم والاصطلاحات تجعل المنطلقين في التفكير يعيشون في أزمة معني تتخلل تصوراتهم ورؤاهم ثغرات وتُصعب عليهم تحديد الأولويات وعدم التنسيق والتنظيم في الاستراتيجيات.

مع التنبيه أن هذه المفاهيم والاصطلاحات قد تكون مستوردة أو منشأها الواقع الاجتماعي الثقافي وما يسانده من مرجعيات وأيديولوجيات وقيم... وتاريخ وأصل "نسب" وجغرافيا مكانية وهذا يعني أن للمفاهيم والاصطلاحات سيرة ومسيرة وصيرورة بصفتها تحمل هُوية وثقافة وإبداع حضاري له ولاء وانتماء لذاكرة حضارية ما.

بناء علي ذلك، فإن انحراف المفاهيم عن جادة الصواب في الفهم والمعرفة وعدم الضبط ولا سيما للمستوردة بـ(الترجمة غير المتخصصة، أو بالانبهار بـ"الغرب" كتغريب، وبفصل الدين عن السياسة كعلمانية، وبازدواجية اللغة

*- أستاذ مساعد بقسم العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والتجارة زليتن، الجامعة الأسمرية الإسلامية.
**- محاضر بقسم العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والتجارة زليتن، الجامعة الأسمرية الإسلامية.

كتعريب، والتشبه والتقليد دون محاولة للبناء والمحاكاة والتبعية دون التفكير في سبل القيادة وطرقها، وبفوضى الفتوى دون مراعاة وحدة الوطن والأمة،...) هذا كله وغيره يؤثر على هُوية الأمة ويشوه ذاكرتها الحضارية إن لم تكن المفاهيم والاصطلاحات مضبوطة بمرجعية دينية أو أيديولوجية تُقومها من حيث المبنى والمعنى؛ بها تتميز أمة الإسلام بأصالتها الموصولة عن حداثة "الغرب" المتحيزة المنقولة؛ التي لا تمت لها بصلة من حيث الظروف الاجتماعية والمكانية والزمنية.

فعالم المفاهيم والاصطلاحات الفكرية هو الذي يصنع التصورات في الإمكان العقلي ويؤثر في مدارك عالم الأشخاص ولو بعد حين، وعند القبول بحداثة التحيز المنقولة المستوردة دون تمحيص حينها تصبح "حشائش نابتة أو أفكار نابتة[1] أو فيروسات[2] أو طابور خامس[3] ومن خلال تجدرها واكتمال نضوجها يتم قطاف إنتاجها في عالم الأحداث "الممكن الواقعي" وعندما لا يتم تعديلها وتنقيحها وتمحصيها

1- تحدث الجاحظ عن نابتة العصر الذين استنبتوا مفاهيم "رمي الكعبة واستباحة المدينة والتكفير والتفسيق..." مفاهيم ما أنزل الله بها من سلطان ولا طبقها الخلفاء الراشدون بذلك خالفوا الدين باستنباتهم مفاهيم واصطلاحات غريبة عن قيم الدين الإسلامي. انظر عمرو بن بحر"الجاحظ" (ت255هـ)، رسائل الجاحظ، شرحه: محمد بن باسل، رسالة في النابتة إلي ابن أبي دؤاد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج2، 2000، ص15.

2- مفهوم مالك بن نبي الفيروس الوراثي انظر كتابه، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة وتلخيص وإعادة صياغة: محمد عبدالعظيم علي، الإسكندرية: دار الدعوة، ط1، 1997 م، ص63.

3- يتخوف محمد إقبال من قافلة المفكرين التبع للثقافات الأجنبية الذين سماهم بـ"الطابور الخامس" ودعا لمفهوم التصفية الذي يعني إعادة بناء الفكر الإسلامي، نفسه، ص64، 65.

بنظام منهجي أو بتطعيم زراعي(*) أو بتصفية؛ عن طريق ردها إلي المرجعية الحاكمة للأمة لفهم ومعرفة إيجابياتها وسلبياتها، حتى تصبح أفكارًا ميتة تنتهي، ولكن إهمالها يجعلها أفكارًا قاتلة تخدر القدرات الدفاعية للأمة.

في هذا الصدد يشير وينبه مالك بن نبي إلي أنه يجب اكتشاف الظاهرة المرضية المفاهيمية والاصطلاحية في الثقافة الإسلامية؛ ولاسيما في مفهوم القابلية للاستعمار، وذلك عن طريق القضاء على الأفكار الميتة المستوردة بحيث لا تواصل عملها التخريبي في المجال الاجتماعي والسياسي(1).

أهمية البحث:

تشخيص الحالة المرضية للأمة في عالم الأفكار والأحداث والرموز والأشخاص ووضع الصفات العلاجية لشفائها من أجل النهوض واستعادة الدور الحضاري والقيادي لخروج الأمة من مأزق التخلف والتبعية الذي لا يكون إلا عن طريق استعادتها لهُويتها الإسلامية بحيث يفكر المفكر من منطلق المرجعية الإسلامية وجغرافية وزمان الواقع العربي الإسلامي وهذا ما يتميز به فكر مالك بن نبي عن غيره من المفكرين– بأنه مفكر الواقع المعاصر، الذي يتجنب الانغماس في التنظير المثالي أو أن يتحسر على ماضي الأمة وأمجادها الغابرة؛ أو أن يدين الآخر– بل هو يفكر في إقامة منهج إصلاحي يخرج الأمة من التخلف والتبعية والقابلية بهما إلي النهوض والتقدم لإثبات الذات العربية الإسلامية في هذا الكون. فضلاً على فهم أثر زحف الأشياء على الأفكار وتبدل الأفكار الأصيلة في عالم الثقافة الإسلامي بأفكار

*– التطعيم الزراعي، فرع يضاف إلي الشجرة من شجرة أخرى لا يأتي بثمار تشبه الشجرة الأم، نفسه، ص65.

1 – مالك بن نبي، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص63.

مكتسبة غريبة عليه تشوه القيم الأخلاقية في الأشخاص وتقلب الروابط الاجتماعية من أساسها لينجرف المجتمع نحو الحضارة المادية[1].

بناءً على هذا التصور فإن شبكة المفاهيم متعددة التي عالجها مالك بن نبي من أجل البناء الحضاري للأمة الإسلامية إذ امتلكت أفكاره قضايا محورية حيث اهتم بمشكلة الحضارة، والنهضة، والثقافة، والاستعمار، والتبعية؛ فدرسها بكل أبعادها في كل مؤلَّفاته، وأبدع فيها وطوَّر بعض مفاهيمها والذي يعني هذا البحث في متنه هو اصطلاح الاستعمار الذي درسه برؤية حضارية مشخصًا الحالة المرضية للأمة في عالم الأفكار والأحداث والرموز والأشخاص ووضع الصفات العلاجية لشفائها من أجل النهوض واستعادة الدور الحضاري والقيادي لخروجها من مأزق التخلف والتبعية لا يكون إلا عن طريق استعادتها لهُويتها الإسلامية بحيث يفكر المفكر من منطلق المرجعية الإسلامية وجغرافية وزمان الواقع العربي الإسلامي.

أهداف البحث:

فهم تصور وإدراك مالك بن نبي في عالم الأفكار يعتبر هدف أساسي تقتضيه خبرة التجربة المعرفية ويمليه مفهوم الإصلاح الوطني والمصلحة الإقليمية والدولية في عصر تعددت فيه الإيديولوجيات الفكرية "فرق مذاهب أحزاب..." لذلك كان الهدف الرئيس هو أن تجتمع الأمة على كلمة سواء كمرجعية إسلامية؛ وأن تقترب الأمة مذهبيًا وتتحاور فكريًا وأن تضبط المفاهيم وتعيد صياغتها وبناءها بصورة تتمشى مع أمن الأمة وسلامتها، بحيث يعي ويفهم الباحث والأمة الأمراض التي تعيق عمرانها المادي والمعنوي ولاسيما عقبات الاستعمار التي وضعها تحت

1- نفسه، ص5.

المجهر وحللها ورصد أساليبها الخبيثة ووضع لهـا معـادلات وقـوانين اصـطلاح تسميتها بـ"الإقلاع الحضاري".

الإشكالية البحثية:

هل الاستقلال السياسي الرسمي يعتبر تحررًا من الاستعمار في تصور مالك ابن نبي.. الاستقلال والتحرر هو وجداني "مشاعر وأحاسيس" نفسي في داخل الإنسان وفكري في تصوره وإدراكه؟

الفرضية البحثية:

أغلب الكتابات عن الاستعمار تركـز علـى الجانـب المـادي المحـسوس للاستعمار كاحتلال الأرض والبحث عن مناطق النفوذ وتقسيم البلاد وتسويق الإنتاج، في حين دراسة مالك بن نبي للاستعمار اهتمت بالجانب المعنوي ولاسـيما النفـسي كمؤثر في القبول بالتدخل الخارجي، بهذا كانت فرضية مالك بن نبي أن الاستعمار إذا أراد أن يغزو ويحتل يمهد بدراسة الطاقات الاجتماعية النفـسية لأي مجتمـع التـي يسخرها لخدمته، وهذا يعني أن التحرر والاستقلال من الاستعمار ليس طـرده مـن حدود إقليم الدولة فقط بل من الوجدان النفسي كقابلية له، وفهم ومعرفة نواياه والوعي بمخططاته في التصور والإدراك الفكري.

المنهج البحثي:

وظف الباحثان المنهج الوصفي التحليلي في متن البحث، وهذا المـنهج قـائم على الوصف والتحليل للظاهرة القابلية للاستعمار ومنظومة مفاهيمها واصـطلاحاتها وطريقة الإلهاء الفكري والإيهام السلوكي التي تعتمدها في التضليل والخداع. في حين كان المقترب هو المقترب الثقافي الـذي يبـين النـضوج فـي التـصور والإدراك

للاستعمار ومدى التصور والإدراك لإلهائه وإيهامه في البلاد المستعمرة ولاسيما في فكر مالك بن نبي.

المحور الأول: منظومة مفاهيم القابلية للاستعمار.

المحور الثاني: منظومة التبعية للاستعمار.

المحور الثالث: الانعتاق والتحرر الفكري والوجداني من الاستعمار.

المحور الأول

منظومة مفاهيم القابلية للاستعمار

لمفهوم الاستعمار مكانة مهمة في منظومة مفاهيم مالك بن نبي، بسبب ما عاناه الشعب الجزائري من قتل وجراح وآلام واضطهاد من المستعمر الفرنسي؛ وأن الاستعمار ينهب ثروات الشعوب المادية والفكرية ويهدد استقرارها الاجتماعي ويذيب هُويتها ويمحو شخصيتها فضلاً عن تبعية الدولة المستعمرة للدولة الغازية سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا، بناءً على هذا تسعى الشعوب لتحرير وعيها منه، وإثبات الذات والحفاظ على هُويتها الفكرية ومواردها المادية من أي غاصب لإرادتها، إضافة إلي القضاء على التخلف والبحث عن التقدم؛ من أجل تحقيق أهدافها في الحرية والديمقراطية والوحدة الوطنية والعدالة الاجتماعية والرفاه الاقتصادي، والحفاظ على سيادتها ومكانتها بين الدول.

وهذا يعني أن بناء المفاهيم والاصطلاحات في أي أمة هو مهمة حضارية، تعزز النبوغ الحضاري وتجدد وتحيي التراث؛ ولاسيما أن الاصطلاح يعبر عن تصور وإدراك هموم وسياق منظومة حضارية تابعة لا نابعة لأمة ما. والحقيقة إذا أراد الباحث وصف فقه الواقع المعاش –وفق السنن التاريخية وجد– أن الحضارات

المنتصرة تفرض إدارتها وإرادتها الفكرية واصطلاحاتها على الحضارات والشعوب المهزومة أو الأضعف.

من هذا التصور فإن حفاظ الأمم على هُويتها وثقافتها وحضارتها من التدخل والتبعية الاستعمارية هو أضمن لمكانتها وتواجدها في هذا الكون؛ وهذا لا يعني أن الأمم لا تتفاعل مع ما هو إيجابي وكل ما ينمي تقدمها إذ أن الحكمة ضالة المؤمن. ولكن الحذر في هذا السياق من كل ما يمحو تميز الهُوية والثقافة والتراث الحضاري للأمم.

من هذا المنطلق أخذ مالك يدرس الاستعمار باستخدام أساليب الاستعمار نفسها من خلال استخدام نظريات علم النفس، والجبر والتاريخ، وغير ذلك من العلوم.

أ- المنظومة المفاهيمية لاصطلاح الاستعمار ومعضلة الأمن والسلام: يبدو في مبنى اللفظ الظاهر أن اصطلاح الاستعمار يعني العمار والعمران والتعمير، ولكن في السلوك الجواني هناك شبكة من المفاهيم تبين النوايا والدسائس والإيهام الذي يتم توظيفه من قبل الاستعمار للدولة المستعمرة هذا الإيهام والإلهاء يتصور كثير من الباحثين -أن الظاهرة تم إساءة ترجمتها- لذلك نجد العديد من المرادفات التي تشير لهذا المبني بأنه الاستحمار في تصور "على شريعتي" أي جعل الشعوب المستعمرة أهلها كالحمير خادمين للمحتل. واصطلاح الاستخراب في تصور "حسن البنا" يعني الفساد والإفساد في حياة الشعوب أي الاستخراب لا يحمل للشعوب المستعمرة إلا البطش والغطرسة والذل والفقر والمسكنة كلما دخل بلداً سلب أهله الذمة "القيم المبادئ الأمانة" ففسد خلقهم وضعفت نفوسهم وشاع الظلم ومات العلم وفشا الجهل وفي تصور بعض الباحثين- يشار إليه بالاستدمار، ومالك لا يوجد في تصنيفه شعوب مستعمِرة

وشعوب مستعمَرة بل قال في شعوب عندها قدرة على الاستعمار وفي شعوب عندها قابلية للاستعمار والذي لا يقبل الاستعمار يجب أن يدافع عن نفسه ووطنه ودينه.

ومن المفاهيم التي تم رصدها وتساند وتدعم منظومة مفاهيم القابلية للاستعمار في تصور وإدراك مالك بن نبي الآتي:

(التبعية – الارتكان – التولي– التغريب– الانتداب – الوصاية – الاحتلال– الغزو– تراخي الإرادة – نقص السيادة – المساعدات الاقتصادية – الانتكاسة النفسية للدولة المغلوبة – التطبيع الثقافي – فقدان الوظيفة التاريخية – تزييف الوعي بـ"الإلهاء الفكري والإيهام السلوكي" – الأفكار الميتة الداخلية " جمود التقدم" – والأفكار القاتلة المستوردة "تدمر التقدم" – تجسيد الأفكار في أشخاص – تقبل للحدود التي رسمها المستعمر لشخصية البلاد المستعمرة – تقبل الاصطلاحات والمفاهيم التي تقلل من شأنه كالبربري والمتخلف والمتوحش – الابتعاد عن الهوية والثقافة والحضارة – الجهل بقيمة الفكرة في الصراع الحضاري – مدح الحداثة ونقد التراث... وغيرها من الاستدلالات الفاصلة لا الواصلة بمرجعية الأمة وكرامتها في هذا الوجود).

في هذا السياق ولفهم واستجلاء خبايا هذا المبني اللفظي "القابلية للاستعمار" يطرح التساؤل الآتي: هل الدولة المستعمرة قاصرة عن إدارتها لذاتها؛ وغير كاملة الأهلية "السيادة" في تصرفاتها، وفي عملية البناء والتطور الحضاري؟ وإذا كانت قاصرة هل يتم التدخل المباشر لدواعي إنسانية وأمنية...؟ الحقيقة أصبحت عملية التدخل لدواعي إنسانية وفكرة طرح اصطلاح الترتيبات الأمنية والعدو المحتمل والحرب الاستباقية من مقدمات التدخل وأن كان يوجد إسناد ودعم دولي للاستشارة والمساعدات اللوجستية من قبل هيئة الأمم التي تبحث عن تحقيق مفهوم السلام في

حل النزاعات في مراحله الثلاثة الذي يبدأ من مفهوم صنع السلام وهو الدبلوماسية الوقائية للتقريب بين وجهات النظر والحد من الخلاف بالتفاوض والمساعي الحميدة...، ويدعمه الالتزام السياسي من الدول الأعضاء، ثم يأتي دور قوات الأمم المتحدة لعمليات حفظ السلام ودورها التقليدي بأنها قوة عسكرية تكون في مناطق فض الاشتباك بين الأطراف المتنازعة لمراقبة وقف إطلاق النار فضلاً على أنها تحافظ على مقار الأمم المتحدة. ولكن هذا الدور توسع وأصبح يتعلق بالإغاثة في حالة الطوارئ، والمساعدة في تطهير الألغام وتدميرها والتعاون مع المنظمات الإقليمية... في حين بناء السلام يأتي بعد انتهاء الصراع ويتعلق بدعم بناء المؤسسات الديمقراطية، ووضع أسس للحكم الرشيد ويساعد على حل الخلافات بين الأطراف بصورة سلمية "المصالحة الوطنية" ويسدي المشورة بشأن تعزيز حقوق الإنسان، وإنشاء مؤسسات الدولة وإصلاحها، وتنظيم انتخابات حرة ونزيهة، وتهيئة الأوضاع اللازمة لتحقيق النمو الاقتصادي المستدام...[1]، ولكن المعضلة في أن هذه الثلاثية الداعمة للسلام تتولى أمرها هيئة الأمم المتحدة في نطاق مهام الجمعية العامة، أما الأمن فيتولى أمره مجلس الأمن الذي يضم الدول الخمسة الدائمة العضوية التي لها حق النقض الفيتو، ولعل هذا يبين المعضلة في عدم ضبط توازن المهام بين مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة حيث تم تخصيص الأمن للدول الخمسة وتعميم

1- من الملاحظ أن مفهوم عمليات حفظ السلام ارتبط تاريخياً بقرار الاتحاد من أجل السلام الصادر عن الجمعية العامة سنة 1950م، إذ يعتبر خطوة أساسية قامت بها الجمعية العامة لتوسيع اختصاصاتها وتجاوز فشل مجلس الأمن في استخدام أحد أعضائه أو أكثر لحق الفيتو. وصنع السلام يحقق ثقافة تقوم على التحول من رد الفعل إلي ثقافة تقوم على الوقاية. انظر كوفي ع.عنان "الأمين العام السابق"، مصير مشترك وعزم جديد، الأمم المتحدة: نيويورك، التقرير السنوي عن أعمال المنظمة 2000م، منشورات دار شؤون الإعلام بالأمم المتحدة، طبع في نيويورك، ص8، 17، 26.

السلام على باقي الدول الأعضاء في الجمعية العامة للأمم المتحدة "المجتمع الدولي"؛ فضلاً على أن السلطة التقديرية لحالة الإخلال بالسلم والأمن الدوليين تركت لمجلس الأمن فهو الذي يتولى تشخيصها[1]، وهذا التشخيص يجعل لاعتبارات الأيديولوجية والمصلحية والانتمائية...عائقاً في التنفيذ، أو الكيل بمكيالين.

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلي أن هيئة الأمم المتحدة سعت لنبذ الاستعمار ونصت في ميثاقها بالحفاظ على سلامة أراضي وسيادة الدول –فضلاً على قرار الجمعية العامة (15/14) الصادر بتاريخ 14/12/ 1960م الذي يتعلق بمنح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة وتصفية كافة أشكال الاستعمار ومظاهره. مع العلم أن مؤتمر برلين 1884م في عقده ينظر إلي البلدان الإفريقية كمستعمرات وشعوب محتلة ويخص الدول المستعمرة بأنها صاحبة القرار والمصلحة وبهذا فهو يكرس الاحتلال الذي تنوعت أشكاله وصوره–.

ب– منظومة وظائف السلوك الاستعماري: وفقًا لجدلية أسبقية الأمن والسلام ولفهم ومعرفة حيثيات التبعية والقابلية والتجرد من الإرادة السياسية، ومن الابتكار الحر للسياسات العامة الداخلية والخارجية لبعض الدول هناك منظومة مفاهيم فرعية لكل مفهوم فرعي يتم توظيفه للحالة المزمنة التي يتصورها الاستعمار لدولة المستعمرة، فمثلا الاحتلال العسكري له شبكة من المفاهيم الفرعية تدخل في نطاقه وهي: الاستيطان، التوطين،الانتداب،الوصاية، الاستيلاء، الغزو، العدوان، الحصار، التهجير، الإبادة، القواعد العسكرية، الاتفاقيات العسكرية السرية للحماية، الحرب بالوكالة، ..... وهذه التصرفات من خلالها يتم انتهاك السيادة والاستقلال والشرعية. ومن

1– عبد الرحمن لحرش، المجتمع الدولي التطور والأشخاص، الجزائر: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2007م، ص113 .

منظومة شبكة المفاهيم الاقتصادية هناك: التبعية، ومختلف أشكال الحرب التجارية "الصناعات المحاصرة" و"الأسواق المخطوفة" و"السياسات التجارية العدوانية[1] والحظر الاقتصادي وفقاً لنص المادة (42) من ميثاق هيئة الأمم. ومن منظومة شبكة المفاهيم القانونية: من الواضح للباحثين أن حق النقض الفيتو تهيمن عليه الدول الخمس دائمة العضوية ولكن في ظل انبلاج اصطلاح الحرب الاستباقية والصراع الحضاري بدل الإيديولوجي... يبدو أن المهيمن على هذه المنظومة المفاهيمية ينطبق عليه قول جورج كينان بأن "أمريكا تملك إنتاج القيم الناظمة لمفاهيم القانون الدولي والأخلاقيات السياسية والقيم الديمقراطية التي هي كفيلة بتحقيق النصر وهزيمة الأعداء[2] على الرغم من الهيمنة على هذه المنظومة القانونية فإن شبكة منظومة المفاهيم السياسية تخترقها بمفاهيم سياسة الكيل بمكيالين، وسياسة الاحتواء والردع، ومحاربة الإرهاب والعدو المحتمل، وبمقولات "من ليس معنا فهو ضدنا"، وبمحور الشر والخير، والدول المارقة فضلاً على أن منظومة شبكة المفاهيم الثقافية يتم فيها التلويح بتغيير بعض المناهج الدراسية كإلغاء الدراسات القرآنية من بعض المراحل الدراسية، أو حذف الآيات التي تأمر بالجهاد والتطبيع الثقافي، وتسعى لتأكيد التقليد للفنون والملابس والمأكل والمشرب... وتبديل الأفكار والقيم والعقائد "التغريب" أي

1- بول كندي، قيام وانهيار القوى العظمى، بنغازي: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1993م، ص219.

2- Meluy. P. Leffler, Remembering George Kenan: lessons States, institute of peace, Washington DC. December 2006, p11.for Today. Special Report, United.

فرض ثقافة الغير؛ بتمزيق الوحدة الثقافية وإضاعة المفاهيم الأصلية في تصور مالك بن نبي.

ولعل هذه المنظومات الفكرية المفاهيمية المتداعية على الدول الإفريقية والمخادعة في تعاملها مع الشعوب إن لم تحتويها النظم السياسية وتواجهها بإرادة وإدارة وعزيمة فهي ستدمر وتحطم التراث الحضاري والثقافة والهُوية، وفي تصور مالك بن نبي أن الهُوية المغايرة ذات ذاكرة حضارية غير نابعة من أصول وعادات وتقاليد الشعوب الإفريقية؛ وأن لم تتحرر تلك الشعوب من التبعية فإنها تصبح خاضعة للوصاية بإرادتها وقابلة لهوُية وثقافة وحضارة المستعمر بملء إرادتها؛ والنتيجة في تصوره هو انتكاسة نفسية للذات المغلوبة أمام الذات الغالبة"[1].

مع الإشارة إلي أن الذي تقدم من منظومات مفاهيمية يستعمله الاستعمار حسب الظروف المتاحة وهذا يعني أن ليس هناك قديم وحديث للفظ الاستعمار فالمبني اللفظي ثابت والسلوك يتجدد حسب المصالح والمنافع. بدليل أن هناك مفاهيم مستنفدة المعني وظفها الاستعمار كاصطلاح البدائي المتوحش، والشرقي، والزنجي، والعالم الثالث، والدول المتخلفة، والبربرية... ومقولاته الخاصة بالطبقة ومن ثم العرق، واللون ويبدو أن هذه الاصطلاحات قد استنفدت واستهلكت جميع وظائفها، ولهذا لا بد من خلق نموذج آخر وهذا الأمر يتعلق بالدين، بحيث تم صنع نموذج الإرهابي- المسلم. وهذا يعني أن صناعة العدو مهمة حضارية "للغرب" فـ"الغرب" بلا عدو سوف يتعرض للتلاشي، إذ أن حيوية الإنتاج قائمة على مفهوم الصراع التي مصدرها العنف فإنتاج السلاح مثلا يحتاج إلي مزيد من الحروب.

1- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة-شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، إصدار ندور مالك بن نبي، 1986، ص154، ص155.

ج- تصور مالك بني لاصطلاح الاستعمار ونشاطاته: قسم مالك بن نبي نموذجه الفكري المشخص لاصطلاح الاستعمار إلي قسمين أطلق على الاستعمار الداخلي معامل القابلية للاستعمار والاستعمار الخارجي المعامل الاستعماري ويبدو أن نطاق تخصصه الهندسي جعله يوظف المصطلح الرياضي لاسم المعامل.

وفي مقام توضيح اصطلاح معامل القابلية للاستعمار (القابلية للاحتلال) داخليًا، أشار إلي أن من منطلقات القابلية للاستعمار الهزيمة النفسية التي تمهد للقبول بمفاهيم واصطلاحات وتصورات المستعمر (عالم الأفكار) التي تؤثر في شخصية ونفسية (عالم الأشخاص) الدولة المستعمرة وبالتالي هذا القبول هو الذي يصنع الحدث (عالم الأحداث) الذي منطلقة الأساس ينبعث من باطن الشخص الذي يقبل صبغة غيره ويسير في حدودها فكرًا وتنظيمًا وحركة وبهذا فهو يطبق المقاصد التي يهدف لها الاستعمار التي تقلل من قيمته حتى الاسمية[1]؛ وتسهل وتبسط وتيسر له إدارة شؤونه الاستعمارية التي منها محاربة الفضيلة فينا وتشتيت جمعنا ليفرقنا شيعاً وأحزاباً[2] وهذا ما يسميه مالك بالانتكاسة النفسية للذات المغلوبة أمام الذات الغالبة؛ ويستنتج من هذا أن التخلص من القابلية للاستعمار هو تخلص نفسي (وجداني) يتعلق بتفعيل المقاومة الواعية ضد القابلية التي هي سبب الخضوع؛ وهذا يتم بتوعية المشاعر والأحاسيس التي توجه الوعي والطاقة الاجتماعية للشعوب[3].

إذن مالك يري أن المسألة الاستعمارية هي مسألةً نفسية داخليًا بالأساس، ولذلك هو يطلب من الأفراد والدول العمل على تصفية الاستعمار من داخل النفس الإنسانية.

1- نفسه، ص152.
2- نفسه، ص153.
3- نفسه، ص154.

في حين أن معامل الاستعماري الخارجي يسعي في منطلقه من تحطيم الفرد المستعمر وذلك عن طريق محو عبقريته وتحطيم قواه الكامنة فيه، للحط من قيمته بطرق فنيه كأنه معامل جبري وضع أمام قيمة كل فرد، بقصد التنقيص من قيمته الإيجابية[1] ليجعل منه الكائن المغلوب على أمره"؛ هذا التنقيص والتقليل من عبقريته يؤثر في حياة الفرد في جميع أطواره العمرية وفي جميع مراكز تنشئته الاجتماعية البيت والمدرسة والمسجد... حتى يتخلى عن كل عزة وكرامة؛ فحتى الوظيفة التي هي حاجة لكل فرد للحياة يحفظ بها الإنسان كرامته وعزته لا ينالها إلا بشق الأنفس[2] فالاستعمار يطفئ نور النهار على الشعوب المتيقظة ويدق ساعة الليل عند غرة الفجر وفي منتصف النهار، لترجع تلك الشعوب للعبودية والنوم[3].

ويتصور مالك بن نبي أن التاريخ قد بين ووضح للشعوب "أن كل شعب يستسلم للنوم؛ فإن الله يبعث عليه سوطاً يوقظه من سباته[4] ويبين تصوره لاجتياز مرحلة العسرة بقوله: "مادامت القيم الجوهرية الثلاثة (الإنسان، والتراب، والزمن) في يد شعب حينما ينهض من النوم فإن ذلك الشعب بلا شك بيده مفتاح تحرره من الانحطاط والانتكاس إذا ما تصرف برشد وحكمة"[5] ولمزيد من التفاصيل لتوضيح معامل صناعة الاستعمار، انظر الشكل رقم (1) الذي يبين تفاصيل معامل الاستعمار الداخلي والخارجي وأسبابه ونتائجه.

1- نفسه، ص145.

2- نفسه، ص147.

3- نفسه، ص151.

4- نفسه، ص150.

5- نفسه، ص150، 151.

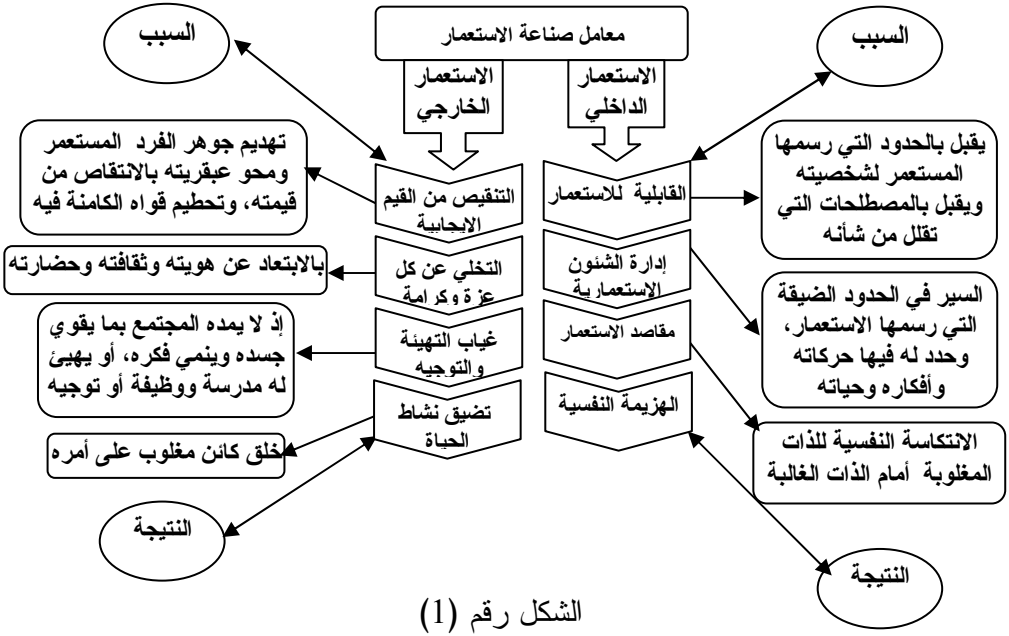

الشكل رقم (1)

من هنا كان الاستعمار في نظر مالك بن نبي، ليس إلا نتيجة طبيعة لقابلية المجتمع لهذا الوضع، فإذا ما تفسخت أوضاعه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، مما يفقده قدرته على الاستمرار في أداء نشاطه الوظيفي، انتهى به الحال إلى أن يصبح كائناً مستعمراً، وفي هذا السياق يصوغ مالك فكرة القابلية للاستعمار في شكلها المنطقي وهي: المجتمع = الوظيفة التاريخية، والقابلية للاستعمار = فقدان الوظيفة التاريخية، إذن فقدان الوظيفة التاريخية هو فقدان المجتمع للذاته. وفقدان المجتمع لذاته مرده عزوفه عن تقديم الخدمات للفرد وتحقيق أمنه وسلامته، وهذا العزوف وظف له اصطلاح البناء الحضاري القائم على إعادة تركيب المجتمع ببناء الإنسان عن طريق

تصحيح المفاهيم الخاطئة بالإقلاع من المرجعية الإسلامية[1] معتبراً أن لكل مجتمع خصائصه المميزة تنبع من قيمه الأصيلة وبهذا التنمية لا تشترى من الخارج وعلى المجتمع الذي يحتاجها يولدها من أصالته وتراثه[2] بناء على هذا اقترح كومنولث إسلامي وحدد دور المسلم ورسالته الحضارية[3].

المحور الثاني

منظومة التبعية للاستعمار

وهي الطرق والسبل التي يتبعها الاستعمار لإلهاء وإيهام الشعوب والحكومات لاحتواء أفكارها والسيطرة على ثرواتها بسياسات يوظفها لمنافعه ومصالحه ويصنع لها أتباعاً أو "أذيالاً" يأتمرون بأوامره، فضلاً على تزييف وعي الشعوب عن طريق الإلهاء الفكري والإيهام السلوكي، ومن أنساق التبعية والمفاهيم المخذولة ما يأتي:

أ- صنع ولاءات فكرية تابعة للنموذج (الغربي): في التعليم والأدب والثقافة وكافة مناحي العلوم الإنسانية والتطبيقية بحيث تكون معظم النماذج الفكرية الأيديولوجية والقيمية والدينية والفكرية... رهينة للنموذج الاستعماري الذي يصبح المرجعية لتلك النماذج.

ب- التأثر بعالم الأشخاص في معرفة الحقائق لا بعالم الأفكار: ويسوق مثال في هذا السياق ويقول: (أن الشيطان عندما يقول 2+2=4 فإن المسلمين سيقولون أن هذا ليس صحيحًا طالما أن هذا قول الشيطان... وبالعكس إذا كان صوت من الأصوات التي

1- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة-تأملات، ندوة مالك بن نبي، دمشق: دار الفكر، 2002م، ص155.

2- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة-شروط النهضة، مرجع سابق، ص23.

3- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة-مشكلة الثقافة، ترجمة: عبدالصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 2000م، ص131.

تعتبر "صادقة" في نظر المسلمين –يقول– أن المجموع يساوي 3 فإن المسلمين سيقولون إن هذا صحيح طالما أن هذا الصوت الصادق هو الذي يقول ذلك) وهذا ما يعرفه الاستعمار ويفهمه عن المسلمين بأن فهمهم مخذول ومغيب ومزيف من قبل إيمانهم بالأشخاص لا بالبحث عن حقيقة المعلومة في عالم الأفكار ولاسيما عن التقصي لهذا المعلومة في علم الرياضيات[1].

ج– تجسد الأفكار السياسية في عالم الأشخاص لا في عالم الأفكار: ففي حديثه عن مفهوم تجسيد الأفكار في أشخاص يقول: "إن السياسات تتجسد في أشخاص بالبلاد التي لم تبلغ درجة معينة من التطور، أو التي سببت لها بعض الظروف وعواصف التاريخ نكسة في التطور، وحركة تقهقر شامل مثل ألمانيا في عهد هتلر، إذ الفكرة حلت في شخص لتنشئ صورة سياسية خاصّة، وهي بحكم شذوذها انحرفت عن مقاييس العقل، وتشبثت وتجسدت بذاتية الفرد فتتطور وتنمو وتنتظم طبقاً لمصالحه الخاصّة؛ بحيث تصبح هذه المصالح تلقائياً هي المبررات والدوافع والمقاييس لسياسة عاطفية"[2] من هذا التقديم والتأخير لعالم الأشخاص على عالم الأفكار يسعى الاستعمار لصناعة "الأبطال" والشخصيات الكاريزمية "الملهمة" التي يستخدم وسائل القوة والإغراء ضدها، بحيث ما تتبناه يسير عليه الشعب المحتل. ويستشهد في هذا السياق بعملية توظيف الفتوى الدينية الصادرة من بعض "علماء السلاطين" لكي يمرر فكرة خاصة به، ففي تصور مالك الفتوى في أحيانٍ كثيرة تسد منافذ الوعي إزاء

1– مالك بن نبي، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص54.
2– مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دمشق: دار الفكر، 1960م، ص24، ص25.

الفكرة[1] عليه فإن تشويه الفكر، وتزييف الوعي، بتجسيد الأفكار في أشخاص يصنعهم الاستعمار أو يتم إلهاؤهم أو إيهامهم أو إغراؤهم، بهم ومن خلالهم يتم التحكم في الشعوب المستضعفة.

د- تأثير طغيان عالم الأشياء في عالم الأشخاص: ويستشهد في هذا المقام بأن درجة الموظف ومكانته الوظيفية في التدرج الهرمي الإداري تتحدد بناء على عدد أجهزة الهواتف التي في حوزته وأجهزة التكييف التي في مكتبه، وتبرز ملامح شخصيتك في السيارة التي تركبها أو تنزل منها[2]، ويشير إلي أن منطلق هذا الانفصام الثقافي يتحدد بقول عقيل بن أبي طالب -أخو علي- "إن صلاتي مع علي أقوم لديني، وطعامي مع معاوية أقوم لحياتي"[3].

هـ- التأثير والتأثر بالأفكار الميتة والقاتلة: وفي هذا الصدد يشير إلي أفكار الواقع المريض التي يصنفها إلي داخلية وخارجية؛ فالأفكار الميتة الداخلية يعتبرها نشأت عن وراثتنا الاجتماعية، وتجاورها الأفكار القاتلة الخارجية التي استوردت من "الغرب"[4]، ويشير في هذا السياق إلي جهود محمد عبده ومحمد إقبال في تصفيتهم لمخزون الأفكار الميتة الموروثة في محيطهم الاجتماعي وفي هذا الصدد اعتبر محمد عبده مجددًا في برنامجه التعليمي ومحمد إقبال جعل ثقافته تهيم بها النفوس، لأنه بفضل ظروف استثنائية -قام بتصفية مخزون الأفكار الميتة التي وجدها في بيئته عند ميلاده، وتفاصيل هذه التصفية جاءت في كتابه الموسوم بعنوان: "إعادة بناء الفكر الإسلامي"، أما من جلب وتفاعل مع الأفكار القاتلة فيتصور أنه "علي عبدالرزاق"

1- نفسه، ص17.

2- مالك بن نبي، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص35.

3- نفسه ، ص41.

4- نفسه، ص63.

"الشيخ الأزهري" الذي درس في أكسفورد واعتبره غيره من الطابور الخامس في بلدانهم داعماً ومسانداً للثقافات الأجنبية[1] معتبراً في هذا السياق أن الأفكار الميتة الداخلية تجمد التقدم والأفكار القاتلة المستوردة تدمر التقدم، مستنداً في عبرته هذه لاسيما للأفكار القاتلة الخارجية إلي التاريخ مستشهدا بحرص سقراط عن تجنيب مجتمعه ما أسماه بـ"قتلة الأفكار" التي تنتقم بشراسة وتقلص من عمر الأفكار الأصيلة ومفاهيمها؛ أما عن الأفكار الميتة فأشار إلي نظام الزواج الذي شاخ وكبر في العالم "الغربي" وأصبح بدون ضوابط ومرجعية مثل: الزواج المدني أو زواج الشذوذ، مبيناً أن الخذلان والخيانة للأفكار الجوهرية الأصيلة ينشأ الزيغ ويقلل من مقدار فعالية المجتمع[2] عليه ينبغي اكتشاف الظاهرة المرضية في الثقافة الحديثة وإلا فإن الأفكار الميتة ستواصل عملها التخريبي في المجال الاجتماعي والسياسي[3] مع العلم أن الأفكار الميتة هي التي تستدعي وتجذب الأفكار القاتلة إلي المجتمع[4] وتصور أن الأفكار الميتة تسكن العقول ولا تدفع حاملها إلى أي مجهود أو نشاط، فهي معلومات عقيمة متوارثة وهي أحد أسباب انحطاط الخط البياني الحضاري للأمة الإسلامية. أما الأفكار القاتلة فهي الأفكار التي تقتل الإبداع في النفوس وتخلق عقلية الاستسهال، وتغيب القدرة التحليلية في فهم المشكلات المعقدة

و- الجهل بقيمة الفكرة في الصراع الحضاري: البلدان المستعمرة تهمل التخطيط للبعثات الدراسية فضلاً عن أنها تبعث بأبنائها دون اهتمام بما لديهم من احتياجات،

1- نفسه، 64، 65.
2- نفسه، ص66، 68.
3- نفسه، ص63.
4- نفسه، ص64.

ولا تعمل على الاهتمام بهم في الخارج من النواحي الأخلاقية، والفكرية فهي بذلك لا تعلم بالضبط مقتضيات هذا الصراع، وأسلوبه ووسائله وأهدافه وعلى ذلك فإن عملها ينتهي بمجرد ما تخرج البعثة من أرضها في حين الاستعمار يقوم بمهمة التعرف على السلوك والشهوات، فضلاً على مهمة التوجيه للتخصصات الأدبية والعلمية ويحتوي المتميزين بالإغراء والإرهاب[1].

ز- عدم ضبط المفاهيم في الدول المستعمرة: فمثلاً وردت عبارة "الحكومة وشعبها" في إحدى المذكرات بدلاً من "الشعب وحكومته" مما جعل المالك مملوكا[2].

ح- التمويه بالفعالية من قبل الاستعمار علي حساب الأصالة: يستشهد مالك بن نبي بعبدالله النديم في منطق التمويه بالفعل الذي يعتمد عليه الاستعمار لزرع النقص في عقول ونفوس الدول المستعمرة عندما يقول لهم:" إذا كنتم مثلنا، تصرفتم كما نتصرف"، هذا الدهاء نتيجته التقليل من قيم الأصالة والتراث؛ وإبقاء الدول المستعمرة في ديمومة الاحتياج لهم بجعلهم حقل تجارب[3].

المحور الثالث

الانعتاق والتحررالفكري والوجداني من الاستعمار

ينطلق الانعتاق والتحرر الفكري والوجداني في النموذج الفكري لمالك بن نبي من فكرة تفعيل المقاومة الواعية ضد القابلية التي هي سبب الخضوع؛ وهذا يتم بتوعية المشاعر والأحاسيس التي توجه الوعي والطاقة الاجتماعية للشعوب،لأنه يتصور أن المسألة الاستعمارية هي مسألةً نفسية داخليًا بالأساس، ولذلك هو يطلب من

1- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص33.

2- مالك بن نبي، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص35.

3- نفسه، ص74

الأفراد والدول العمل على تصفية الاستعمار من داخل النفس الإنسانية، ويحدد التصورات الآتية:

أ- يجب معانقة الأفكار المجردة من قبل الضمير الشعبي لا معانقة عالم الأشخاص: فالأفكار السياسية المجردة في توظيف مفاهيم مثل: الجهاد والتحرير والخلافة، التي تحمل في طياتها مبدأ التعديل الذاتي "المراجعات الفكرية" أي الرقابة الذاتية؛ وتلتزم المبادئ والمقاييس والقواعد المرجعية والمنهجية في منطلقها، فضلاً على أنه يجب أن تصون نفسها من كل تدخل أجنبي أو خارجي يحاول تغيير مجراها ومسارها[1]، هذه المفاهيم الفكرية في توظيفها التجريدي يعمل الاستعمار على محاربتها في إطارها العام "التجسد في الضمير الشعبي" ويسعى إلي العمل على تجسيدها في البناء الخاص "تجسيدها كفكرة في ضمير شخص معين "كاريزمي" يحاول تطويعه لمصالحه، أي يسعى الاستعمار إلى تحويل تجسيد مفاهيم الأفكار السياسية من التطويع العام إلى الخاص أي من التجسيد في ضمير الجماعة إلى ضمير الشخص حتى يتم تطويع المجموع وتركيعه بترغيب وترهيب الشخص؛ ويستشهد مالك بأن الدين الإسلامي رفض تجسيد الفكرة في ذات محمّد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ)[2]، فيحذر كانعتاق وتحرر في هذا الصدد من تجسيد الفكرة في ذات الشخص حتى لا يستخدمها الاستعمار كأسلوب ترهيب وترغيب لهذا الشخص، الذي بدوره يتبعه الشعب والنتيجة التحكم في مصير الشعب، ولكن لو بقيت فكرة التحرر مجردة لا يحملها شخص معين بل تحملها عقول

1- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص24.
2- سورة آل عمران (144).

الناس في داخل الدول المستَعمرَة فستبقى قوية لا يمكن أن ترضخ للاستعمار وستكون عامة، ولذلك يخاف الاستعمار من الأفكار المجردة، فيعمل دائماً على تجسيدها؛ في صناعة الأبطال واستغلال علماء السلاطين، وجهل الجماهير، وتوزيع الأموال على الناس والإعلام... لمحاربة الفكرة المجردة، ومن الأساليب غير المرئية مثلاً "أن يغتال رجلاً واحداً حتى يبث الفوضى والاضطراب، أو أن يشتري ضمير أحد الزعماء السياسيين، الذين تتجسد فيهم في فترة معينة، طاقة البلاد الحيوية وفكرة نضالها"[1].

ب- من دعائم التحرر والانعتاق في عالم الأفكار عربيًا وإسلاميًا: تحرير الأرض من الاحتلال، وتحرير الإنسان من القهر والاستبداد، والعدالة الاجتماعية وإعادة توزيع الدخل، ووحدة الأمة ضد التجزئة والقبلية والعرقية، وإثبات الهُوية ضد التغريب والتبعية، وتفعيل التنمية المستقلة، والاعتماد على التراث وحشد الجماهير حتى يتحول الكمّ إلى كيف.

ج – من معالم التحرر والانعتاق في عالم المفاهيم: يشير إلي أنه يجب توظيف مفاهيم التراث الإسلامي التي منها مفهوم الحسبة التي يستحق إدخاله في حقل النظم السياسية[2] ويحذر في هذا المقام من أن إضاعة المفاهيم الأصيلة كمفهوم الحسبة هو تمزيق للوحدة الثقافية، ولاسيما في ظل ازدواجية اللغة في البلاد العربية "التعريب" ويبين أن اللغة الفرنسية أثرت في معاني الحياة اليومية للشعب الجزائري، فضلاً على المجال الفكري[3] ويشير أيضاً إلي أن الأفكار الصادقة ولاسيما الأصيلة النابعة من

1- "بتصرف" مالك بن نبي، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص77.
2- نفسه، ص59.
3- مالك بن نبي، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص60.

مفاهيم تراث الأمة والكتاب والسنة؛ هي التي تتجاوب مع كافة المشاكل ذات الطابع الأخلاقي، وهي تحتاج لمرجعية قيمية تنطلق منها، وإلي أفكار فعالة تواجه مشكلات التنمية لمجتمع يريد إعادة بناء نفسه[1].

د- من دعائم التحرر والانعتاق فهم ومعرفة عالم المناهج للنهوض الحضاري: يتصور مالك بن نبي أن القضية قضية مناهج وأفكار وليست قضية موارد في العالم العربي والإسلامي؛ وأنه لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها[2] فضلاً على أنه يجب أن نحدد مكاننا من دورة التاريخ، حتى يسهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا[3] عليه "لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج، متغافلاً عن مكان أمته ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعًا للجهد، ومضاعفة للداء، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار"[4] معتبرًا أن فوضى "الغرب" القيمية، تجربة مفيدة ينبغي أن نحللها وأن نتفهمها في صلاتها بالمشكلة الإنسانية عامة، وبالتالي بالمشكلة الإسلامية حتى يتم بناء الفكر الإسلامي، وتحقيق الوعي السنني، الذي ينسجم مع البعد الكوني لحركة التاريخ، ذلك البعد الذي يسبغ على حركة انتقال الحضارة قانوناً أزليًا

1- نفسه، ص69.
2- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة – شروط النهضة، مرجع سابق، ص100.
3- نفسه، ص47.
4- نفسه، ص47-48.

أشار إليه القرآن في قوله تعالى [وتلك الأيام نداولها بين الناس] [آل عمران:104][1] عليه لا بد من فهم هذا "الغرب" في عمقه، وتحديد خصائصه، ومعرفة ما يتميز به من إيجابيات وسلبيات، حتى لا تكون معرفتنا به سطحية مبتسرة، وأفكارنا عنه عامة وغير نابعة من إطلاع متأمل، وبالتالي يكون وعينا به مشوهًا أو جزئيًا. ولهذا ينتقد ابن نبي النخب المسلمة في صلتهم بأوروبا، بأنها صلة تجارية أو وظيفية، بدل أن تكون صلة تأمل وإدراك لسر حركة التاريخ في أوروبا والغرب عموماً، فيقول: "نرى أن الطالب المسلم لم يجرب حياة أوروبا، بل اكتفى بقراءتها، أي أنه تعلمها دون أن يتذوقها. فإذا أضفنا إلى ذلك أنه ما زال يجهل تاريخ حضارتها، أدركنا أنه لن يستطيع أن يعرف كيف تكونت، وكيف أنها في طريق التحلل والزوال لما اشتملت عليه من ألوان التناقض، وضروب التعارض مع القوانين الإنسانية[2] عليه يجب فهم ومعرفة الغرب عن طريق تطوير وخبرات وآليات التعامل معه، بما يحقق الوعي والتميز وكيفية التعامل معه بالمثل وبالندية وفق معايير حضارية إسلامية[3].

هـ- دور منظومة العلاقات الاجتماعية في مواجهة الاستعمار: بما أن الاستعمار يسعى لإيهام وإلهاء الفرد بالقابلية له فهو يسعى أيضاً لتغيير المجتمع وتدميره وفقاً لما يراه فالاستعمار يعلم "أن منظومة العلاقات الاجتماعية هي التي تؤمن بقاء المجتمع، وتحفظ له شخصيته، وهي التي تنظم طاقته الحيوية، لتتيح له أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ وبديهي أننا لا نستطيع أن نفترض أن الاستعمار يجهل هذه

1- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة- وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 2002م، ص121،122.

2- نفسه، ص68.

3- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة – مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص16.

العوامل في بلد مستعمر فهو يطبق سياسته في البلد المستعمر قاعدة "فرّق تسد"[1] مع العلم أن مالكاً يحدد طبيعة المجتمع من خلال ثلاثة عوالم، لابد من تواجدها وهي "عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء"[2] وبدون هذه الأسس الثلاثة، لا يمكن أن يتم بناء مجتمع فيقول: "لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقاً لنماذج أيديولوجية من عالم الأفكار يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص، ولابد من عمل منظم بين هذه العوالم الثلاثة، ولكي تؤدي إلى عمل تاريخي، فلابد من عالم رابع هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما يطلق عليه منظومة العلاقات الاجتماعية"[3].

و- الحذر من قوارض الاستعمار: يتصور مالك بن نبي أن الاستعمار يستخدم نوعاً من القوارض المجازة، الذين ربُّوا بعناية في بؤره الثقافية لمهاجمة منظومة العلاقات الثقافية والأخلاقية في بلد معين، وهم أنفسهم الذين يدّعون أنهم يمثلون ثقافته"[4].

ز- الوعي بالحضارة وضرورة فقه حركتها خارجيًا وداخليًا: يتصور مالك بن نبي أنه من ضرورات طرح مشكلة التأخر الحضاري يحدد ركيزتين سلبية وايجابية على المستوى الخارجي ففهمها ومعرفتها والوعي بها تدعم التجديد في المشروع الحضاري للأمة الإسلامية وهاتين الركيزتين هما: المحدد السلبي وهو إدراك نسبية الظواهر الغربية، ومعرفة أوجه النقص فيها وأوجه العظمة الحقيقية. والمحدد الايجابي وهو

1- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية "الجزء الأول"، ترجمة: عبدالصبور شاهين، المراجعة: عمر مسقاوي، دمشق: دار الفكر،1985م، ص76، 77.
2- نفسه، ص23
3- نفسه، ص24.
4- نفسه، ص78.

"تحديد ما يمكن أن نسهم به في ترشيد الحضارة الإنسانية وهديها؛ وهذا في حد ذاته ينضج ثقافتنا ويعطيها توجهًا عالمياً، وإذا ما أدرك المثقف المسلم مشكلة الثقافة من هذه الزاوية، فسوف يمكنه أن يدرك حقيقة الدور الذي يناط به في الحضارة المعاصرة"[1] في حين أن الركيزة في مستواها الداخلي تنبع من التخلف الذي يعيشه المسلمون ويعود إلى طبيعة تشكيل عقليتهم وشخصيتهم التي ترسبت فيها مفردات الثقافة السلبية، وفي هذا الصدد فرق مالك بين المجتمع الفعّال والمجتمع غير الفعّال، فاعتبر أن فاعلية المجتمع تنطلق من فاعلية الإنسان لهذا كان يقول: "إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ" وتصور أن مشكلة المسلم هي: أنه لا يفكر ليعمل بل يفكر ليقول ويتكلَّم، وقد أدَّى ذلك إلى ضياع الاستفادة من المال والوقت والعلم[2].

ح- الحذر من الجنوح المادي وإهمال القيم المعنوية: يعتبر مالك بن نبي أن الفكر الرأسمالي والاشتراكي "الغربي" واحد في جنوحه ودورانه حول مفهوم الوزن والكم لأنه ينطلق من المنهج العلمي المادي التجريبي[3] هذا الجنوح المطلق قتل المفاهيم الأخلاقية وقيمها الفاضلة النبيلة ووسع المساحة بين العلم والضمير وأحدث الفوضى والاختلال بين الأفراد، عليه فإن هذا الجنوح لا يستأنس ولا يقتدي به لفقدانه الشروط النفسية للمواطن العالمي[4].

1- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة-مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص140.

2- مصطفى عاشور: مالك بن نبي، فيلسوف مشكلات الحضارة www.islamonline.net .

3- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: د. بسام بركة ود.أحمد شعبو، إشراف وتقديم المحامي: عمر مسقاوي، دمشق: دار الفكر، 2002م، ص24.

4- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة - وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص117، 160.

ط- الطبقية هي نتاج الرأسمالية: فالرأسمالية تقوم على الحرية في الربح، وفكرة نمو المنفعة المادية جعل الدول المصنعة تبحث عن المواد الأولية لتحويلها إلي سلع ومنتجات وهذا ما مهد للبحث عن مناطق النفوذ باستعمار الدول من أجل تسويق الإنتاج في الأرض المحتلة وتسخير أهلها للعمل فيها كسخرة، من خلال هذا الطرح يتصور مالك بن نبي أن الرأسمالية تحدّد علاقاتها مع الآخرين، على اعتبارات اقتصادية بحتة قائمة على مفهوم الإنتاج والتوزيع[1].

الخاتمـــــة:

يبدو أن الاستقلال السياسي الرسمي لم يحسم قضية إعادة بناء الهُوية فالقضية ليس طرد الاستعمار من الأرض فحسب بل القضية هي طرد الاستعمار من الوجدان كإحساس ومشاعر ومن الفكر كتصور وإدراك ومن تحويل الإنسان إلي سلعة مادية تباع وتشترى وتستورد وتصدر.

هذا الطرح يعني أن الهيمنة الاستعمارية شاملة في عملية إلهائها وإيهامها للشعوب والحكومات وجميع مؤسسات الدولة حيث تبدأ بإرباك الحياة الثقافية لصنع التمايز الاجتماعي الذي من خلاله تحارب القيم والأخلاق النبيلة والفاضلة المنبثقة من الشرائع السماوية لتوظف بدلاً منها القوانين الوضعية كالدين المدني والزواج العرفي والمثلي، وما على شاكلتها من انحرافات جعلت الإنسان في مركز الكون بدل مركزية الله ثم جعلت الآلة مركز الكون.

مع العلم أن إلهاء المجتمع بمشاكله الداخلية كصراع الطوائف والأقليات والاختلاف المذهبي السني والشيعي، لابد وأن يقود إلى أبعاد أو على الأقل تأجيل

1- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة-المسلم في عالم الاقتصاد، دمشق: دار الفكر، 2000م، ص23. وانظر: مالك بن نبي، مشكلات الحضارة- شروط النهضة، مرجع سابق، ص 111.

وتحويل الاهتمام عن الصراعات مع الاستعمار وفهم نواياه والوعي بتصرفاته ومآربه ولنتذكر في هذا المقام أهم جوانب الإلهاء في الوطن العربي وهي: مشكلة لبنان والصراع الطائفي، مشكلة الصحراء والصدام المسلح بين الجزائر والمغرب، القلاقل في جنوب السودان، حرب العراق والكويت وإيران والعراق النزاعات الحدودية، حرب دول التحالف العربي بقيادة السعودية في اليمن.

النتائـــج:

1- يتضح من هذا البحث أن هناك تصورين لتقييم الاستعمار: نظرة الدول المستعمرة للاستعمار ونظرة الاستعمار للمستعمرات ففي نظرة الدول المستعمرة للاستعمار يبدو أن أغلب الكتابات في هذا المجال تركز على أن الاستعمار هو غزو واحتلال للأرض وعدوان ونهب للممتلكات المادية وما على شاكلتها من مفاهيم الضرر الاستعماري متجاهلة أن هناك دعائم ومساندات تمهد للقابلية للاستعمار يوظفها الاستعمار لتيسير عمليته الاستعمارية وهي التي لامسها مالك بن نبي في نطاق كتاباته وهي نظرة الاستعمار للمستعمرات؛ إذ يهتم الاستعمار بالجانب المعنوي ولاسيما النفسي كمؤثر مساند في القبول بالتدخل الخارجي من أجل تحقيق منافعه المادية.

2- التحرر والاستقلال من الاستعمار ليس رفضاً مادياً فقط أي طرده من حدود الإقليم، بل التحرر والاستقلال وجداني نفسي أيضًا بهذا يحذر من الولاءات الفكرية والوجدانية التي يصنعها الاستعمار.

3- الحذر من تجسيد حقيقة الأفكار في شخصية أشخاص "أبطال، ملهمين، محررين، علماء سلاطين، إعلاميين بارزين..." حتى لا يقوم الاستعمار بتزييف الوعي الجماعي من خلال احتواء أفكار تلك الشخصيات بإغرائهم أو إيهامهم

وإلهائهم، فالحقيقة لا تعرف بالأشخاص بل بالفهم والتعرف والوعي البحثي في تفاصيلها.

4- يحذر مالك بن نبي من الانفصام الثقافي الذي يجعل شخصية الإنسان تقاس بما يملك ويلبس ويركب.. وليس بما يكتب ويؤلف ويعي لاسيما في التدرج الهرمي الوظيفي.

5- اعتبر أن الأفكار الميتة الداخلية التي لا تنمي الإنسان ولا تنهض بعلومه تجمد التقدم واعتبر أيضًا أن الأفكار القاتلة المستوردة من الخارج التي لا يتم تمحيصها تدمر التقدم وتعتبر فيروسات وطابوراً خامساً بناء على هذا أكد على ضرورة الاهتمام بالفكرة في الصراع الحضاري والحذر من التقليل من قيمة الأصالة والتراث في هذا الصراع.

التوصيـــــات:

1- للإقلاع الحضاري للأمة العربية والإسلامية يوصي مالك بن نبي بتفعيل المقاومة الواعية ضد القابلية التي هي سبب الخضوع؛ وهذا يتم بتوعية المشاعر والأحاسيس.

2- يدعو لضرورة الاهتمام بالمناهج والأفكار العلمية والارتفاع بها إلي قمة الأحداث الإنسانية في ظل فهم ومعرفة العوامل التي تبني الحضارات، فالقضية في تصوره قضية مناهج وأفكار وليست قضية موارد في العالم العربي والإسلامي. ويدعو في هذا الجانب إلي صناعة المفاهيم التي تنتمي للأمة المفاهيم الأصيلة النابعة من التراث والأصالة لا التابعة والوافدة التي تمزق معالم بنيان الوحدة الثقافية.

3- يوصي بضرورة توحيد العوالم الثلاثة "عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء" وأن يكون عملها مشتركاً ومتوافقاً وفقًا لنماذج أيديولوجية واضحة ومحددة ولاكتمال إنجازها يجب أن تقترن بمنظومة العلاقات الاجتماعية حتى يكون عملها تاريخياً.

المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: تقارير:

1- عنان، كوفي "الأمين العام السابق"، مصير مشترك وعزم جديد، الأمم المتحدة: نيويورك، التقرير السنوي عن أعمال المنظمة 2000م، منشورات دار شؤون الإعلام بالأمم المتحدة، طبع في نيويورك.

ثالثاً: كتب تراث:

1- عمرو بن بحر "الجاحظ" (ت 255هـ)، رسائل الجاحظ، شرحه: محمد بن باسل، رسالة في النابتة إلي ابن أبي.

رابعاً: كتب عربية:

1- بن نبي، مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دمشق: دار الفكر، 1960م.

2- بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية "الجزء الأول"، ترجمة: عبدالصبور شاهين، المراجعة: عمر مسقاوي، دمشق: دار الفكر، 1985م.

3- بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة-شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، إصدار ندور مالك بن نبي، 1986م.

4- بن نبي، مالك، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة وتلخيص وإعادة صياغة: محمد عبدالعظيم علي، الإسكندرية: دار الدعوة، ط1، 1997م.

5- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة-المسلم في عالم الاقتصاد، دمشق: دار الفكر، 2000م.

6- بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة-مشكلة الثقافة، ترجمة: عبدالصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 2000م.

7- بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة-تأملات، ندوة مالك بن نبي، دمشق: دار الفكر، 2002م.

8- بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة-وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبدالصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 2002م.

9- بن نبي، مالك، مشكلة الحضارة-مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: د. بسام بركة ود. أحمد شعبو، إشراف وتقديم المحامي: عمر مسقاوي، دمشق: دار الفكر، 2002م.

10- كندي، بول، قيام وانهيار القوى العظمى، بنغازي: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1993م.

11- لحرش،عبد الرحمن، المجتمع الدولي التطور والأشخاص، الجزائر: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2007 م.

خامساً: كتب أجنبية:

1- Meluy. P. Leffler, Remembering George Kenan: lessons for Today. Special Report, United States, institute of peace, Washington DC. December 2006

سادساً: إنترنت:

1- عاشور، مصطفى، مالك بن نبي. فيلسوف مشكلات الحضارة، www.islamonline.net